مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الحَاقَّةِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الحاقة

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الحاقة

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ ٱلْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾

ابتدأت سورة الحاقة بتأكيد تحقق وقوع يوم القيامة. فقال تعالى ﴿ ٱلْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴾ فقد كررها الله سبحانه وتعالى ثلاث مرات متتاليات، فأعطى سياقها التعظيم والتهويل والترويع والتخويف للمشركين وعموم الكافرين من يوم القيامة. فبدأ ذكرها أولاً مجرداً من أن يلحق بها وصف ﴿ ٱلْحَاقَّةُ ﴾ التي تُمَحَّص وتُحَقَّق فيها الأمور تحققاً تنكشف بها الأعمال، ويحصل بناء عليها الجزاء، والمآل. وهي من أسماء يوم القيامة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ ٱلْحَاقَّةُ ﴾ من أسماء يوم القيامة، عَظَّمَهُ اللهُ تعالى، وحذر عباده. وقال قتادة رحمه الله تعالى: الساعة أحقت لكل عامل عملَه[١] وقال الزجاج رحمه الله تعالى: إنما سميت الحاقة لأنها تحق كل إنسان بعمله، من خير أو شر[٢]

ثم أكد الله سبحانه وتعالى ﴿ ٱلْحَاقَّةُ ﴾ باستفهام لها، وذلك للمزيد من التهويل والتعظيم، فقال جَلَّ جلاله ﴿ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴾ ماهي؟ ما صفاتها؟ ما الأحداث التي تقع فيها؟ ما أهوالها وأحوالها؟ وما حال الناس فيها؟ استفهام يشد الذهن نحو هولها وعظمة شأنها، بما يشد الْمُخَاطَب إلى المتابعة، لإدراك ومعرفة ﴿ ٱلْحَاقَّةُ ﴾ وقد ورد بناء جملة ﴿ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴾ بناء استفهامياً بعد أن وردت مطلقة ﴿ ٱلْحَاقَّةُ ﴾ لتعطي بذلك دلالة

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٢٠٥-٢٠٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٧٨)

التعظيم. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: ﴿ مَا ﴾ اسم استفهام، مستعمل في التهويل والتعظيم، كأنه قيل: أتدري ما الحاقة؟[١] ثم كررها سبحانه وتعالى للمرة الثالثة ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾ هل تعلم ما هي الحاقة؟ سؤال لكل أحد. أي شيء أعلمك ما هي الحاقة؟ لأنك لم تعاينها، ولم تر أهوالها. بما يفيد أن انتفاء مشاهدتك ومعايشتك لأهوالها، ينفي عنك علمك بحقيقة أحداثها العظيمة؛ لأنك لم تعاين وتشاهد أهوالها. بما يفيد التفظيع لها ولأهوالها عندما تراها أيها الإنسان، ولإفادة التحذير أيضاً من ذلك اليوم، وما يجب له من الاستعداد، بلزوم الطاعة والانقياد لله تعالى بما جاء به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من ربه عَزَّ وجل. وبما يفيد: أننا قد أخبرناك بها بعد جهلك بأهوالها وحقائقها، أيها الْمُخَاطَب. لتعطي دلالة أننا قد أقمنا الحجة بالإنذار منها.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى الأحداث الدنيوية التي تقارب أهوال يوم القيامة، لِمَا فيها من عظيم قدرة الله تعالى. حيث أخبر جَلَّ جلاله بنماذج من إهلاكه عَزَّ وجل للأمم التي كذبت بيوم القيامة. والذي ظهر فيها شيء من أوصاف يوم القيامة. فقال عَزَّ وجل ﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴾ فقد كذب قوم ثمود ﴿ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴾ التي هي اسم من أسماء يوم القيامة. إذ كذب قوم ثمود نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام، وكان مسكنهم الحجر، في منطقة العلا. وكذلك مثلهم قوم عاد، كذبوا ﴿ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴾ فقد كذبوا نبيهم هود عليه الصلاة والسلام، وكانت منازلهم بالأحقاف، ما بين حضرموت وعُمَان. فَكِلا القومين كذبوا بالقارعة ﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴾ التي هي يوم القيامة. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: كذبت ثمود، قوم صالح. وعاد قوم هود بالساعة التي تقرع قلوب العباد بهجومها عليهم. والقارعة أيضاً اسم من أسماء يوم القيامة[٢] وقد أهلكهم الله تعالى بهلاك أظهر لهم به قوة يوم القيامة. حيث أنزل عليهم عَزَّ وجل العذاب المخيف الرهيب. حيث انتقل السياق الكريم إلى إيضاح هذه القوة المهولة التي أهلك بها ثمود وعاد.

فقال عَزَّ وجل ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴾ وهي الصيحة التي طغت عليهم من قوتها. قال قتادة رحمه الله تعالى: أي: بالصيحة الطاغية، أي: المجاوزة للحد، أي: لحد الصيحات من الهول[٣] أي: صيحة مهولة، قد أخمدتهم في لحظة واحدة. فكيف بالنفخ في الصور، المتمثلة في النفخة الأولى: فلا يبقى أحد، والنفخة الثانية التي ينبعث ويخرج الناس من قبورهم من قوتها الرهيبة.

---

(١) ابن عاشور، التحرر والتنوير (٩٧/١٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠٧/٢٣)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦٨/١٨)

ثم ذكر تبارك وتعالى قوة إهلاكه لقوم عاد، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ أي: دمرنا قوم عاد بريح شديدة في قوتها وسرعتها ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ أي: بريح عاتية حتى أصبح لصوتها صرير من شدتها وقوتها، فقد كانت ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ أي: شديدة الهبوب والحركة، فلا يُستَطَاع ردها أو الوقاية منها، بالتالي كانت ذات صيحة من قوتها التي أهلكهم الله تعالى بها. فإن هذه الأهوال من الهلاك توضح وتشير إلى عظيم قدرة الله تعالى، وأن يوم القيامة أشد هولاً من ذلك. مما يبين عظيم قدرة الله تعالى، وأنه لا يسع أحدٌ أن ينكر ويكذب بيوم القيامة.

ومن دقائق قوة الاستدلال هي تلك العلاقة والتعاضد بين شدة الريح ﴿ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ التي أوضحت وبينت عظيم قدرة الله تعالى. وبين اسم ﴿ ٱلْحَاقَّةُ ﴾ الذي هو اسم ليوم القيامة، وكذلك اسم القارعة في قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴾ الذي هو اسم من أسماء يوم القيامة، فهو تناسق بياني عظيم، قد بلغ الإعجاز في توافقاته، وكشفه للحقائق بالدلائل المتعاضدة.

ثم أورد تبارك وتعالى وصفاً لشدة ذلك العذاب لقوم عاد. فقال تعالى ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ فسلطها سبحانه وتعالى عليهم بقدرته سبع ليال، وثمانية أيام ﴿ حُسُومًا ﴾ أي: مستمرة في تتابع من غير انقطاع. فحسمت أمرهم وانهتهم بالهلاك. ومن قوة البيان في إظهار كمال وعظيم قدرة الله تعالى أن أورد التسليط عليهم بدلالة التسخير ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ الذي أفاد كمال التمكن، وهو استعمال الأمر على وجه كمال الاقتدار. وكذلك إظهار الشدة في الحسم بقوله تعالى ﴿ حُسُومًا ﴾ أي: التتابع غير المنقطع. قال الفراء رحمه الله تعالى: الحسوم: التِّبَاع، يُقال في الشيء إذا تتابع فلم ينقطع أوله عن آخره: حسوم[1] مما يفيد ويدل على أن إرادة الله تعالى كائنة كيف يشاء. فمن كانت هذه قدرته، فإنه قادر على بعث العباد من القبور، وأن هول وأهوال يوم القيامة أشد وأنكأ على الكافرين مما حصل لهم من العذاب في الدنيا.

والله سبحان وتعالى قادر على أن يهلكهم في لحظة واحدة، ولكن جعل في دلالة أعدادها بأنها ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ ﴾ ما يفيد الإمعان في عذابهم، بأن يذوقوا العذاب سبع ليالٍ مع أيامها التي

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧٩/٨)

بلغت ثمانية أيام، أي: أن بدايتها بطلوع الشمس من أول أيامها، ونهايتها بغروب شمس اليوم الثامن. وفي هذا البلاغ ما يُظهر شدة العذاب المتتالي عليهم تلك المدة من الأيام والليالي، وهم تحت وطأة العذاب الشديد.

ثم يخبر الله تعالى عن حال قوم عاد بعد هذا العذاب الشديد، فقال تعالى ﴿ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴾ فكان حالهم فيما لو نظر إليهم أحد من الناس، في تلك الأيام، وفي ذلك المكان، لرأى ﴿ ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ ﴾ أي: هالكين ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ ﴾ أي: فحالهم مشابه لحال أصول وجذوع نخل ﴿ خَاوِيَةٖ ﴾ خالية مما كان عليها، فأجسادهم خربة متآكلة ومتشققة ومتقادمة من هول الريح التي عذبتهم بالهلاك.

ثم يعمم سبحانه وتعالى ذلك الهول الشديد من العذاب المهين بسؤال للمُخَاطَبين أجمعين من بعدهم ﴿ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴾ فهل ترى أيها الإنسان لهؤلاء المكذبين أحداً عاش منهم، فسلم من العذاب؟ سؤال يثير التفكير، واصطحاب واجترار العقل إلى التأمل في التاريخ، منذ مصيبتهم حتى اليوم. فالجواب ليس لأجسادهم من بقاء، ولا ذرية لهم، فقد انقطعوا انقطاعاً كاملاً. وقد أورد تبارك وتعالى دلالة البقايا منهم بصيغة التبعيض ﴿ مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴾ لإفادة كمال الهلاك، الذي لم يُبق لهم نفس، ولا منهم أحد، ولا لهم أثر. لإفادة قوة الأخذ لهم بالعذاب جميعاً. وهو سؤال تقرير، يقرر به سبحانه وتعالى قوة أخذه إذا أراد أن يأخذ جمعاً بأكمله، فإنه عَزَّ وجل لا يعجزه شيء. وكذلك يقرر به كمال القدرة التي يقرر بها يوم القيامة، يوم البعث والنشور، والحساب والجزاء.

﴿ وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ٩ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ١٢ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨ ﴾

وبعد أن أخبر سبحانه وتعالى عن قوم عاد وثمود الذين كذبوا بيوم القيامة، وبما جاءهم به رُسُلهم من الحق والحجج، ينتقل البيان الكريم إلى شأن من شابههم في التكذيب بيوم القيامة، وعصيان رُسُل الله عليهم الصلاة والسلام. وهم: الطاغية فرعون، ومن سبقه من الأمم، وقوم لوط. فقال تعالى ﴿ وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ

﴿ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴾ فتضمن البيان إظهار شأن فرعون، لقوة تجبره، وادعاء الألوهية، وعطف عليه عموم من سبقه من الأمم، وخص أيضاً أصحاب المؤتفكات، الذين هم قوم لوط بالذكر، والإشهار، لفعلتهم التي لم يسبقهم إليها أحد من الأمم. فبدأ البيان بمن ادَّعَى الألوهية ﴿ وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ ﴾ أي: وجاء إلى فرعون وقومه نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام رسولاً من الله تعالى، فكذبوه. وفي تخصيص فرعون دون ذِكر قومه، لإظهار جبروته على قومه، حيث لا يتكلمون برأي إلا من خلاله، فلا يستطيعوا أن يُدينوا بشيء غير ما أمرهم به.

ثم عطف على فرعون مَن كان قبله ﴿ وَمَن قَبۡلَهُۥ ﴾ لإظهار قوة كفره الذي تجاوز به الحدُّ إلى أن ادَّعَى الألوهية لنفسه ﴿ وَمَن قَبۡلَهُۥ ﴾ أي: ومن قبل فرعون كفرت أمم سابقة لهم، كقوم نوح وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام. ثم عطف عليهم من يستحق الإظهار بالتشنيع والتقبيح، لفعلتهم التي لم يسبقهم إليها أحد من قبلهم، وهم قوم لوط. فقال تعالى ﴿ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴾ أي: قوم لوط. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: والقرى التي أفكت بأهلها، فصار عاليها سافلها ﴿ بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴾ يعني: بالخطيئة. وكانت خطيئتُها: إتيان الذكران في أدبارهم[1] وقد جمعت دلالة ﴿ بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴾ الذنوب والمعاصي، والتي منها الكفر، وفعل الفاحشة. وتشمل دلالة وسياق ﴿ بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴾ أن كل أمة من تلك الأمم قد جاءت بالخطيئة من الذنب الذي استحقت به العذاب المدمر لها.

ثم بعد ما سبق من الذكر العام والتخصيص، عَمَّمَ البيان الجرم الذي تساووا فيه جميع من سبق، بأنهم لم يستجيبوا للمرسلين، فأهلكهم الله تعالى ﴿ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةً رَّابِيَةً ﴾ فلم يستجيبوا لرسلهم عليهم الصلاة والسلام ﴿ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةً رَّابِيَةً ﴾ فأهلكهم الله سبحانه وتعالى بما يستحقون من العذاب. أي: فأخذ الله تعالى كل أمة كذبت برسولها أخذها ﴿ أَخۡذَةً رَّابِيَةً ﴾ أي: أخذة شديدة، بما يدل على كمال الاستئصال لهم، فليس في إهلاكهم من بقي بعدهم على قيد الحياة. وقد أفادت ﴿ رَّابِيَةً ﴾ القوة والشدة، بأنها أُخِذَة كل أمة أخذاً زائداً ومتناهياً في الشدة. وهي من ربا يربو، أي: زاد. ومن ذلك ما ارتفع من الأرض، يُسَمَّى: رابية.

---

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠٧/٢٣)

ثم يذكر تبارك وتعالى ما كان من شدة أخذه عَزَّ وجل لقوم رسوله نوح عليه الصلاة والسلام، الذين كفروا به، فأخذهم الله تعالى بالغرق الذي أهلكهم به عَزَّ وجل ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ ومن دقائق السياق أن البيان الكريم قد استغنى عن تسميتهم، وتسمية رسولهم نوح عليه الصلاة والسلام، وذلك لِمَا عُرف من دلالة الإغراق، والسفينة التي هي الجارية التي حملت نوح ومن معه من المؤمنين، لأنهم قد اشتهروا بذلك الوصف من العذاب. فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ فإنه لما تجاوز الماء حده بالعلو والارتفاع، وهو معنى ﴿ لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ ﴾ فالطغيان هو مجاوزة الحد في كل شيء ﴿ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ أي: حملناكم أيها الْمُخَاطَبون حين كنتم في أصلاب آبائكم، فحملنا آباءكم. أي: فَحُمِلتُم أنتم حيث كنتم في أصلاب الآباء، فكنتم في السفينة ﴿ ٱلْجَارِيَةِ ﴾ وهي سفينة نوح عليه الصلاة والسلام، التي كانت تجري فوق سطح الماء الذي جعلناه يطغى فوق حده، بما يعني المبالغة إلى أقصى حد في المجاوزة، بما يُظهر قوة العذاب، وقوة قدرة الله تعالى العظيمة. مما يبين عظيم سلطان الله تعالى في تصريفه للعذاب بأنواع مختلفة لا حدود لها، بما يفيد كمال قدرة الله تعالى، وبما لا يخطر على بال وخاطر العباد وأذهانهم، فقد يأتي بالعذاب والنكال من حيث لا يحتسب الإنسان.

كما أفاد ذلك أن هذه الأحداث المتنوعة في قوتها هي آيات وحجج على كمال قدرته عَزَّ وجل على بعث الخلق ليوم القيامة، ومحاسبتهم، ومجازاتهم. فإن هذا ينفي اعتقاد من يكفر بيوم القيامة وينكرها. مما يفيد أن من أساليب الله تعالى في التوجيه هو التعليم بالحوادث التي مرت على الأمم. مما يبين أهمية استثمار الأحداث التي تحدث وحدثت في مجال التربية والتوجيه، والنصح والوعظ، والدعوة إلى الله تعالى.

ومن مزيد فوائد البيان الكريم هو تذكير العباد بامتنانه عَزَّ وجل على الْمُخَاطَبين، وهم الناس أجمعين، وذلك بحمل أصولهم في سفينة نوح عليه الصلاة والسلام، وهم الذين أنجاهم الله تعالى بحملهم في الجارية، بل أورد الحمل بضمير الْمُخَاطَبين ﴿ حَمَلْنَٰكُمْ ﴾ أنتم أيها الناس الْمُخَاطَبون بهذا الكلام والتوجيه، وبما يعيدهم إلى أصولهم، وحقائق إنعامه تبارك وتعالى عليهم. فلولا فضلنا وإنعامنا عليكم، لَمَا كنتم في الوجود، وفي هذه النعمة من الحياة. بل وأوراد سبحانه وتعالى البيان بالنجاة حال أن وصل العذاب بالغرق إلى أوج شدته ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ ﴾ أي: بلغ الماء حينها منتهاه في ارتفاعه وعلوه، فقد بلغ مبلغاً لا ينجو منه أحدٌ أبداً، إلا من كان محمولاً في السفينة الجارية فوق ذلك الماء ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ وقد أسند الإنجاء له تبارك وتعالى ﴿ إِنَّا ﴾ لإظهار كريم عنايته عَزَّ وجل، وعظمته وجلاله، ومُؤكداً ذلك بأداة التوكيد الملتصقة بضمير المتكلم سبحانه وتعالى. والذي يفيد التفخيم، والتعظيم، والقوة، والعزة له عَزَّ وجل، مع التفضل على العباد جميعاً.

ثم تكرير إسناد العناية له عَزَّ وجل في قوله تبارك وتعالى ﴿ حَمَلْنَٰكُمْ ﴾ فبقدرتنا حملناكم، أي: حملنا أصولكم التي أنتم من سلالتهم. وليفيد كذلك المزيد من التعظيم والتبجيل والقوة والعزة لقدرته جَلَّ جلاله. وليبين سبحانه وتعالى عظيم إنعامه الذي يُوجِب عليكم الانقياد والمتابعة له عَزَّ في علاه، ولما جاءكم به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من الحق أيها العباد.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بعلة وغاية وهدف هذا التذكير ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ فإن ذلك الإنجاء لنبيه ورسوله نوح عليه الصلاة والسلام ومن معه من المؤمنين، وإغراق الكافرين حتى تكون تذكرة لكم ووعظاً تتعظون به، فتحمدون الله تعالى عليه ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ لنجعل من هذه الواقعة والحادثة العظيمة عبرة وموعظة، فيعقلها ويحفظها ويعيها أهل الآذان الواعية التي يمثلها أولي الألباب من الناس.

فقد تضمن هذا البيان عظيم امتنان الله تعالى على جميع العباد، بما يُوجِب عليهم أن يستجيبوا لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فإن من حكمتنا ومرادنا ﴿ لِنَجْعَلَهَا ﴾ لنجعل هذه الحادثة ﴿ لَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ تَذْكِرَةً ﴾ تذكركم بما كان من قبل، فنعظكم بها. ثم أخبر عَزَّ وجل بصفة المستفيدين، المتعظين بها، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ وهي صفة التميز لأولي العقول الصافية السليمة؛ التي تريد الحق، والتي تقوم على الاستماع الواعي ذوا الانتباه والتعقل ﴿ وَتَعِيَهَآ ﴾ تدركها فتعمل بها. أي: أصحاب الآذان التي تمثل صفة الانتباه، والفهم، وإدراك الدلالات. وقد ربط البيان الوعي بالآذان. لأن الأذن هي آلة الاستماع، والاستقبال للمنطوق من الأصوات. والاستماع إما أن يكون بوعي، أو بدون وعي. فوصف الانتفاع أنه مخصوص بالآذان الواعية، المنتبهة ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ أي: الأذن المنتبهة للحق. بما يعطي قاعدة في صواب وصحيح التلقي في التعليم، والدعوة والإرشاد. بأن الفائدة إنما تحصل بالآذان التي تستمع الاستماع الجيد، وتستوعب ما تسمع، وتفهم ما يقال لها. حتى يدرك العقل ما تم الاستماع إليه إدراكاً ينتفع به صاحب الأذن الواعية.

وفي هذا تنبيه للجاحدين الكافرين بأن يستمعوا إلى القرآن بآذان واعية، وأن لا يجعلوا للموانع سبيلاً، من الحسد، والاستكبار، ومحبة اللهو وعشقه، الذي ينحرف بحقيقة المسموع من الوعظ والإرشاد بالحق إلى مواجهته، وعدم قبوله ابتداء. فكل مستمع للحق، وهو يحمل ابتداء الرفض والطعن، فإنه قد جعل وحكم على أذنه بأن لا يعي ما يسمعه ويُقال له، فقد منعها بهذا الحكم المسبق من الوعي والانتباه لِمَا تسمع الآذان. وينطبق هذا في عموم اجتماعات الناس، وتداولهم للآراء والأفكار. فمن كان في عقله حكم مُسبَق، ولا يريد غيره، فإنه

بهذا الحكم لن يلتفت إلى كل قول يخالف حكمه الْمُسبَق، لأن ذهنه مشغول بكيف يرد ويطعن فيما يسمع من القول. بينما القبول والترحيب لمن وفقه الله تعالى لحسن الاستماع.

ثم يتدرج البيان في انتقاله البديع إلى شأن يوم القيامة التي افتتح الله تعالى بها السورة العظيمة. فقد سلك السياق الكريم في افتتاح سورة الحاقة بتعظيم يوم القيامة، وبأسلوب موجز ومؤثر تأثيراً بليغاً من خلال الوصف البلاغي المبين لهول القيامة ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ ثم تلاه الموعظة بمن سبق من الأمم الكافرة، وما نالهم من شدة العذاب وتنوعه، الذي يُوَثّق العلاقة بين أهوال يوم القيامة، وبين أهوال إهلاك الأمم السابقة الكافرة. وبما يَسْتَوجِب الجمع بين تلك الأهوال من العذاب للأمم الكافرة. وبين التصديق بيوم القيامة وأهوالها، وكمال وقدرة الله تعالى. ثم لينتقل السياق مرة أخرى إلى وصف تفاصيل أهوال يوم القيامة. فقال تعالى ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي: عندما ينفخ إسرافيل في الصور، وهو قرن عظيم، ينفخ فيه الملك إسرافيل عليه السلام نفخة واحدة. بما يدل على قوتها وكفايتها، فلا يحتاج إلى أن يكررها. فالنفخة الأولى يصعق ويموت جميع من في السماوات والأرض إلا من استثناهم الله تعالى، كما جاء في سورة الزمر، قوله تعالى ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ممن ثبته الله تعالى عند النفخة الأولى، فلم يصعق، فيبقى على ما هو عليه من الحياة. قيل أنهم: جبريل وميكائيل، وإسرافيل، ومَلَك الموت[1] ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ أي: نفخة البعث، كما ورد ذلك أيضاً في سورة الزمر. وهي النفخة الثانية، التي هي نفخة البعث، حيث قال الله تعالى ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ فيقومون من قبورهم لحسابهم، وهم في كامل صورتهم التي كانوا عليها في الدنيا، حيث يُعيد الله تعالى أجسامهم، وأرواحهم، فإذا بهم يشاهدون مشهد يوم القيامة، الذي هو يوم البعث والنشور والحساب، ليأخذ كل أحد من العباد جزاءه الذي يستحقه من خير أو عذاب.

بما يفيد أن هذه هي الحال التي سيكون عليها العباد، والتي تدل على عظمة ربكم أيها العباد، ومع هذا تُنكرون البعث، وتشركون معه المخلوق الضعيف العاجز. فأين عقولكم؟ فإنها موعظة جليلة من الله سبحانه وتعالى، يصحح بها أفهام العباد الضالين عن الحق الظاهر البائن. مما يبين أن حجة الله تعالى قد ظهرت للجميع، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل على نفسه.

ثم ينتقل البيان من الله تعالى إلى الإخبار بأهوال وأحوال يوم القيامة. فقال عَزَّ وجل ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: فإنه حين حصول يوم القيامة الذي هو يوم الحاقة؛ فإن الأرض تُحمل بقدرة الله تعالى، وتُدك دكة واحدة، من غير زيادة، وذلك لعظيم قدرة الله تعالى. قال الشوكاني رحمه الله تعالى

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠/٢٥٤)

عن قوله عَزَّ وجل ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ ﴾ أي: رُفِعَت من أماكنها، وقُلِعَت عن مقارها بالقدرة الإلهية ﴿ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي: ضُرِبتا ضربة واحدة، بعضها ببعض، حتى صارتا كثيباً مهيلا، وهباء منثورا[١] ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ فحين إذٍ وقعت القيامة ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ وتنشق السماء بنزول الملائكة ﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ فمن هيبة أهوال يوم القيامة، ونزول الملائكة ﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ أي: خاشعة متذللة. وقيل: أي: ضعفها من الخوف، قاله مقاتل. وقيل: أنه تشققها. قاله الفراء[٢] مما يبين هول يوم القيامة، وخشوع وهيبة كل شيء لعظمة ذلك اليوم.

وورد الحمل للجبال بصيغة الفعل الذي لم يُذكر فاعله ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ ﴾ وذلك لإظهار هول الحدث، وإشغال الذهن بهذا الفعل العظيم والرهيب والمهيب، من خلال إشغال الفكر بهذا الحدث الذي يبين عظيم قدرة الله تعالى. كما ورد الدَّك بصيغة التأكيد، وذلك بتكرار الدَّك ﴿ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ فيتم دكها بضرب بعضها ببعض مرة واحدة، من غير زيادة عليها. بما يُظهر كمال وعظمة قدرة الله تعالى.

ثم يخبر عَزَّ وجل بما تقوم به الملائكة من أعمال. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ والملائكة ذلك اليوم كما يقول جَلَّ جلاله ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ﴾ أي: على جوانبها وأطرافها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: والْمَلَك على حافات السماء، حين تشقق، ويقال: على شقةِ كل شيء تشقق عنه[٣] قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وأكثر المفسرين على أن المشار إليها السماء. قال الضحاك: إذا انشقت السماء كانت الملائكة على حافتها، حتى يأمرهم الله تعالى، فينزلون إلى الأرض، فيحيطون بها، ويمن عليها[٤] فهو يوم رهيب الهيبة بقوة وهول أحداثه ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ثمانية صفوف من الملائكة، لا يعلم عِدَّتهم إلا الله سبحانه وتعالى. وقيل: ثمانية أملاك[٥] أي: ثمانية من الملائكة. قال ابن الجوزي رحمه الله: وجاء في الحديث أنهم اليوم أربعة، فإذا كان يوم

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٨١/٥)
(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨٢/٨)
(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢٦/٢٣)
(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨٢/٨)
(٥) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢٨/٢٣)

القيامة أمدهم الله بأربعة آخرين. وهذا قول الجمهور(١) وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وهذا من أحوال الغيب التي لا يتعلق الغرض بتفاصيلها، إذ المقصود من الآية بيان عظمة الله تعالى، وتقريب ذلك إلى الأفهام(٢) مما يبين عظمة الموقف، وعظمة الله تعالى ، وجلاله، ومهابة تدبيره.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ ففي ذلك الموقف تُعرَضُون على ربكم للحساب ﴿ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ فلا يخفى على الله تعالى أحد منكم، ولا من أعمالكم وأحوالكم. فليست هناك خافية تستتر وتغيب عن الله تعالى، لكمال علمه بعباده فرداً فرداً، وبما كان منهم. فيحاسب كل بما كان منه.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ثم ينقسم الناس يوم القيامة في المحشر إلى قسمين: فمنهم من يأخذ كتابه بيمينه، ومنهم من يأخذ كتابه بشماله. فقال تعالى عن الذين يأخذون كُتُبهم بأيمانهم ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ فالذين يأخذون ويستلمون كتبهم بأيمانهم فإنهم: هم أهل السرور والسعادة في ذلك اليوم ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ أي: فأما من أُعطِي كتاب أعماله بيمينه ﴿ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ تعالوا اقرأوا كتابي، بما يفيد ويدل على الغبطة والفرح والسعادة التي نالها، بأخذه للنتيجة التي يدخل بها الجنة.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٨٣)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٢/١١٠)

وفي تخصيص إتيان الكتاب باليمين دلالة الكرامة، والبشارة بالخير، والنجاة من النار. وأما قوله تعالى بأنهم يقولون ﴿ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴾ خطاب من الآخذ كتابه بيمينه لغيره في يوم المحشر. وقد ابتدأ البيان بحرف ﴿ فَأَمَّا ﴾ الذي أفاد التعيين والتفصيل، والتوكيد والربط بين من يأخذ كتابه بيمينه وبين ما يكون له من الجزاء والخصوصية التي خصه الله تعالى بها، وما يدل ويعنيه الأخذ باليمين. فالمجيء بحرف ﴿ فَأَمَّا ﴾ يشد الانتباه لهذه الحال المكرمة من الله تعالى. مما يبين عظيم السياق، وقوة دلالته، وغزارة مقاصد حروفه وكلماته. فسبحان من أظهر كريم إعجازه في بلاغة كتابه القرآن العظيم.

ثم يخبر الله تعالى بما يقوله الآخذ كتابه بيمينه، وذلك بذكره للأسباب التي قام بها في الدنيا، فمكنه الله تعالى بهذه الأسباب من أخذه كتابه بيمينه. فقال تبارك وتعالى عنه: فيقول ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴾ قد كنت في الدنيا مؤمن ومُوقن ومصدق بأني سَأُبْعَث، وأُحاسَب في الآخرة، عن جميع أعمالي التي كانت في الدنيا. بما يفيد: أنني كنت مجتهداً في طاعة ربي في الدنيا، وأعمل لهذا اليوم، لأني مؤمن ومصدق وموقن به. مما يدل على فضل الإيمان، بأنه يجعل صاحبه مجتهداً في طاعة ربه سبحانه وتعالى، ومبتعداً عن المعصية، فيعمل في الدنيا وعقله وذهنه مُنضبط بيوم الحساب. فكان يوم الحساب ضابطاً لأعماله وتصرفاته.

ثم يقول الله تبارك وتعالى عن حياة هذا الذي أخذ كتابه بمنه بصيغة الإجمال، والتي اشتملت على كمال السعادة، ليأتي بعدها التفصيل ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴾ فإنه في عيشة مُنَعَّمَة إلى درجة أنه قد استكمل رضاه وسعادته بها. ثم بعد هذا الإجمال في البيان؛ الذي اكتمل به التشوق إلى معرفة تفاصيل هذه العيشة الراضية. يقول تعالى بعدها: بأنه ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴾ أي: فإنها جنة من البساتين العالية المنازل والمقام، وقد أفاد العلو ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴾ إظهار ما يترتب عليه، من ارتفاع المقام والمنزلة، والسعة، واتساع النظر لما فيها من المحاسن والجمال بمياهها وأنهارها وأشجارها، وتنوع ثمارها.

كما أنه من جليل نعيمها أن ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴾و أي: ثمار الجنة ﴿ دَانِيَةٞ ﴾ قريبة ممن يتناولها، فلا يحتاج إلى أي وسيلة حتى يقطف منها، بل يتناول ما يشاء من ثمارها بمجرد القطف لها، فإنها في متناول اليد. ومن جليل التكريم والترحيب أيضاً: أنه يُقال لهم ﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴾ كلوا واشربوا في الجنة ﴿ هَنِيٓـَٔۢا ﴾ أي: لا كدر ولا مشقة ولا عناء، فهو نفي وإثبات، إثبات لكمال نعيم المأكل والمشرب. ونفي لكل أضداد الهناءة من التكدير والتنغيص. فلا شيء يكدر عليكم سعادتكم. فكلوا واشربوا ما

شئتم. ثم يُذكر لهم سبحانه وتعالى علة وسبب ما هم فيه من العيشة الراضية في الجنة ﴿ بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴾ بسبب ما كنتم عليه في الدنيا من طاعة ربكم بالإيمان والأعمال الصالحة. وفي هذا البيان من الله تعالى ما يُحفز كل إنسان إلى أن يدخل في دين الله تعالى، ويحفز المؤمنين على الصبر في طاعة الله تعالى، والبعد عن المعصية، وضبط السلوك والتصرفات حتى في الخلوات. بما يربي في المؤمن ضبط النفس كما قال أهل الجنة عن عموم حياتهم في الدنيا ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴾ لقد اعتقدت جازماً بأنني سأحاسب عن جميع أعمالي. فكان ذلك الإيمان ضابطاً لتصرفاته، بأن تكون على منهج الله تعالى. وهي قاعدة لكل مؤمن في حياته.

فإذا واجهته الرغائب في المعصية، قال لنفسه ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴾ وإن تكاسل في الطاعة قال ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴾ وإن رأى حاجة غيره للموعظة قال له بذلك ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴾ فهي مُذَكِّرة بفعل الطاعة والبعد عن المعصية. مما يبين عظيم بيان الله تعالى. وقوة تأثيره على من تابعه ووعى وفهم ما فيه من البيان.

ثم يتوجه السياق الكريم إلى بيان حال الأشقياء الذين يأخذون كتبهم بشمالهم. فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴾ وهم أهل الشقاء والعذاب ﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ﴾ فأما من أُعطِي كتاب أعماله بشماله ﴿ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴾ فإنه يقول متمنياً: لو أنني لم أستلم كتابي ﴿ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴾ حتى لا أرى فيه قبائح أعمالي، وما سأصير إليه من العذاب. بما يفيد أنه يتمنى أن كان ذلك الموت هو نهاية أمره، فلم يُبعث بعد موته، فكان ذلك الموت هو آخر وجود له. وذلك لما يرى مِن هول ما يشاهد من شدة يوم القيامة عليه، وما فيها من دقة الحساب، فيقول ﴿ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴾ يا ليتني لم أُبعَث وأُحاسب، فلم أتعرف على أعمالي، وما سيؤول إليه مآلي. أمنية لا يمكن تحققها له، لأن كل شيء واقع عليه، فليس هناك شيء يرجوه. فقد انقطع الرجاء ﴿ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴾ يا ليت الموتة التي متها في الدنيا كانت هي النهاية للحياة، والقاطعة التي قضت عليَّ بلا رجعة للحياة الآخرة. بما يفيد التحذير من هذا اليوم العصيب، وذلك بطاعة الله تعالى. وهذا من رحمة الله عَزَّ وجل، بأن أبان للناس حقائق الآخرة قبل دخولها.

ثم يتذكر الأمر الذي أطغاه في الدنيا، وجعله بعيداً عن طاعة ربه جَلَّ جلاله ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴾ فيعترف بأن مكتسباته من الأموال قد أشغلته في الدنيا عن الطاعة، حتى أطغته. فلم يدافع ولم يدفع عنه ماله شيئاً من عذاب الله عَزَّ وجل. مما يفيد التحذير عن الاشتغال بملهيات الدنيا، التي أقواها شدة حب المال. وأنه يجب ضبط التعامل في طلب المال، ومكتسبات الدنيا بالضوابط الشرعية التي شرعها الله تعالى. فإن المال نعمة من الله تعالى، مما يُوجِب شكر الْمُنعِم بالطاعة والامتثال.

ثم تزداد الحسرة من فقدانه لأي حجة وقوة يحتج ويتقوى بها، مما كان له في الدنيا، فيقول ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴾ غاب وزال عني ما كنت أتقوى واستقوي به في الدنيا. فمن قوة البيان أن دلالة ﴿ سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴾ تستوعب كل قوة، سواء كانت الحجة، أو سلطان الملك، أو النفوذ، والسلطة، أو القوة التي كان يتقوى بها في الدنيا. فقد ورد قولان في معناها عند المفسرين: أحدهما: الحجة: حجتي، وبينتي. والثاني: سلطان الدنيا[١] فذهبت وزالت عني حجتي، فلا حجة لي أحتج بها اليوم لأنجو. وزال عني ما كنت أعهده من مكانتي وجاهي وسلطاني وملكي. مما يبين ويفيد أن جاه الدنيا لا ينفع صاحبه إن كان قائماً على معصية الله تعالى. فلا ينفع إلا العمل الصالح وفق ما شرع الله تعالى.

فيأمر الله تعالى ملائكة العذاب بأخذه، فيقول عَزَّ وجل ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ أي: خُذُوه، أخذ إهانة ونكاية ﴿ فَغُلُّوهُ ﴾ والغل هو وضعه في القيد، بأن تُجمَع يديه إلى عنقه ﴿ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ ثم أدخلوه النار، فيحترق فيها. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: يأمر الزبانية أن تأخذه عنفاً من المحشر، فتغله، أي: تضع الأغلال في عنقه، ثم تُورده إلى جهنم، فتصليه إياها، أي: تغمره فيها[٢] ﴿ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴾ أي: فادخلوه في سلسلة طويلة، حتى يتقلب بها في النار، فيزداد بها عذاباً. والسلسة في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ﴾ هي حِلَق الحديد المتداخلة بعضها في بعض ﴿ ذَرۡعُهَا ﴾ أي: أن طولها ومقاسها هو ﴿ سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا ﴾ والغاية منها هو ﴿ فَٱسۡلُكُوهُ ﴾ أي: فادخلوه واجعلوه فيها. وعن الضحاك رحمه الله تعالى: أن الْسَّلك هو: أن تُدخل في فِيه، وتُخرَج من دبره[٣] مما يبين شدة وقوة العذاب الذي يناله أهل الشقاء.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٢٣٦-٢٣٧)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٤٤٤)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٢٣٩)

ثم يبين سبحانه علة وسبب ذلك العذاب، فيقول تبارك وتعالى ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي: كان كافراً جاحدا بوحدانية الله تعالى، لا يقوم بما أوجبه الله تعالى عليه. بل أظهر البيان هنا عظمة الله تعالى: بأن هذا الكافر لم يكن يحقق الإيمان ﴿ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فإن حقه هو العذاب العظيم، الذي يُماثل عظمة كفره بربه العظيم. فكيف لا يُعَظِّمُ هذا العبد الضعيف ربه المتصف بالعظمة، التي تجلت عظمته عَزَّ وجل في خلق هذا العبد، وفي وجوده وحياته، وفي جميع ما خلق سبحانه وتعالى، وفي آياته، وحججه، وما جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ثم بعد أن ذكر جَلَّ جلاله تقصير هذا الشقي في حق ربه عَزَّ وجل، فإنه كذلك قد بلغ به الطغيان إلى درجة أنه لا يُؤدي حتى حقوق الضعفاء، بل كان ممتنعاً عن أدائها. فقال جَلَّ شأنه ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ فإنه لا يُطعم المسكين، ولا يحض غيره على إطعامهم. فلا ينتفع به ومنه المحتاجون من عباد الله تعالى، بأن يعطيهم حقهم من الإطعام والعون لهم. ومعنى ﴿ وَلَا يَحُضُّ ﴾ أي: ولا يدعو غيره لإطعام المساكين. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: لا يُطعمه، ولا يأمر بإطعامه[١] فقد جمع بين التقصير في حق ربه، وبين التقصير في حق من يتعايش معهم من المساكين. بما يفيد قسوته وشدته. ومن مزيد فوائد دلالات البيان: أن شملت واستوعبت جميع أوجه الذم له في عدم إعانة المساكين. بأنه لم يؤد حق الله تعالى فيهم، ولم يؤد حتى حق المساكين عليه من الشفقة والإعانة. وأن في إمساكه دعوة لغيره بالاقتداء به، على عدم الاطعام.

مما يبين أهمية الإنفاق على المساكين. وأن لهم حقوق على غيرهم. كما أفاد هذا البيان العظيم عناية الله تعالى بالمساكين، التي قد فرضها على أهل اليسار. كما يدل هذا الحق للمساكين، والتنويه به على عظمته وأهميته. إذ به يحصل التواد والترابط الاجتماعي، وأن الله تعالى يبتلي ويختبر أهل اليسار بما أنعم عليهم. وأن التفضل على المساكين حق يلزم القيام به.

ثم بعد أن أوضح تبارك وتعالى كفر هذا الشقي وجحوده، وتقصيره مع ربه سبحانه وتعالى، ومع خلقه كذلك، يخبر بعد ذلك جَلَّ شأنه عن الجزاء الذي يستحقه ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴾ فأول العذاب هو العذاب النفسي، وذلك بتحسره من عدم انتفاعه بأصدقائه وجلسائه الذين كان يجالسهم في الباطل، وما كان بينهم من علاقة المحبة والوداد. فقال عَزَّ وجل عنه ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴾ أي: ليس له في هذا اليوم الذي هو يوم الحساب والعذاب أي قريب أو حبيب وصديق ينفعه، أو يشفع له. فهو نفي قاطع. فقد انقطع

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٨٥)

اليوم هذا الشقي عن كل قريب ينصره، ويتحمل عنه، أو يدفع عنه شيئاً من البلاء. مما يفيد انتفاء العلاقات والقرابات والصداقات والأعوان عن هذا الشقي الذي مصيره الاصطلاء في النار. كما قال تعالى في سورة الزخرف ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فكل صداقة وعلاقة بين إثنين أو أكثر تتحول إلى عداء يوم القيامة، ما عدا علاقة وصداقة المتقين، لأن خِلّتهم فيما بينهم كانت مبنية على الطاعة لله تعالى، بينما غيرهم مبنية على الفساد والمفاسد.

وبعد معاناة هذا الشقي من شدة العذاب النفسي، من عدم وجود أي صديق يدفع ويتحمل عنه شيئاً من العذاب، ينتقل البيان الكريم بإيضاح طعام هذا الكافر في النار. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ ليس له طعام أبداً إلا من نوع واحد، وهو ﴿ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ انتفاء جميع أنواع الطعام، وحصره فقط في هذا النوع ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ وهو صديد أهل النار، وهو ما يخرج من لحومهم. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه صديد أهل النار. وعن قتادة رحمه الله تعالى: شر الطعام وأخبثه وأبشعه[١] ثم حصر سبحانه وتعالى أكله في فئة محددة، هم الكفرة، فقال تعالى ﴿ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ لا يأكله إلا الكفرة الذين ارتكبوا خطيئة الكفر. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: لا يأكل الطعام الذي من غسلين إلا الخاطئون. وهم المذنبون الذين ذنوبهم كُفْرٌ بالله تعالى[٢] وقال السعدي رحمه الله تعالى: الذين أخطأوا الصراط المستقيم، وسلكوا سُبُل الجحيم، فلذلك استحقوا العذاب الأليم[٣] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وتعريف ﴿ ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ للدلالة على الكمال في الوصف، أي: المرتكبون أشد الخطأ، وهو الإشراك[٤] أي: فهم المرتكبون لأفظع وأشد الخطأ، وهو الكفر.

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ
﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا
مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٢٤٠-٢٤١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٢٤١)

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥/٣٠١)

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٢/١٢٠)

وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾

وبعد بيان الله تعالى الْمُقَرِّر بانقسام الناس يوم الحشر إلى فريقين: فريق يأخذون كتبهم بأيمانهم، وهو المؤمنون. وفريق يأخذون كتبهم بشمائلهم، وهم الكافرون. ينتقل البيان الكريم بعد ذلك إلى تعظيم ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم بالقسم العظيم ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يقسم الله تعالى بما أدركته أبصار عباده، ومما غاب عنهم، مما لم تدركه أبصارهم من مخلوقاته التي لا تُعد ولا تُحصى، بأن هذا القرآن العظيم الذي قاله ونقله الرسول الكريم صلى الله عليه للناس، بأنه حق واضح مبين. فابتدأ كلام ربنا بالقسم العظيم، تحقيقاً وتأكيداً بأن ما يقوله صلى الله عليه وسلم حق لا ريب ولا شك فيه.

فيخبر جَلَّ شأنه بعظمة القرآن العظيم، ومنزلته الرفيعة، التي ينفي بها ما نَسَبَهُ أعداء الدين للقرآن العظيم، من أنه سحر، وأنه شعر، وأنه من أساطير الأولين، ونحو ذلك من الأكاذيب الباطلة. وقد استهل البيان في تجلية ذلك بالقسم العظيم من رب العالمين. فقد أقسم الله تبارك وتعالى بما يبصره العباد ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴾ فجمع جميع ما يراه العباد من مخلوقات في الأرض، وفي السماء. وما يرونه بتنقلاتهم في الأسفار، وبما يأتيهم مما لم يروه. ثم عطف عليه سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ أي: مما غاب عنهم فلا يبصرونه في حينه، ومما هو ممتنع عليهم إبصاره مما خلق تبارك وتعالى، كالأرواح، والملائكة، والعرش، وذاته العظيمة سبحانه وتعالى، وما يجري في السماء، وما يحدث في الأرض مما لا يرونه. فأقسم بجميع المخلوقات. ثم أورد جَلَّ جلاله المقسوم عليه ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ فشملت دلالة ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ القرآن العظيم، وجميع ما ينطق به صلى الله عليه وسلم من قول في شأن الدين، لأنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، كما ورد في سورة النجم، حيث قال تعالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ وفي هذا غاية التزكية، ومنتهى المدح والثناء على أمانته صلى الله عليه وسلم. كما أن في تنزيه القول ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ما يقتضي تنزيه أفعاله صلى الله عليه وسلم بمثل ذلك. بما يفيد أن كلامه وأفعاله عليه الصلاة والسلام هي كمال الصواب والحكمة، والحق. وأن سيرته عليه الصلاة والسلام هي القدوة والأسوة في الحق. فمن أراد الحق والحكمة فليقتدي بسيرته وسنته صلى الله عليه وسلم.

ودلالة ﴿ فَلَآ ﴾ التي دخلت على القسم أفادت التوكيد، وتعظيم المُقسَم به، التي شملت جميع المخلوقات، وأيضاً الأبصار. وتأكيد ذلك بحرف ﴿إِنَّهُۥ ﴾ الملتحق به الضمير العائد على القرآن الكريم. كما أفاد القسم ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ ﴾ شموله لِمَا يبصره الْمُخَاطَبون ﴿ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴾ وأيضاً ﴿ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾ وفيه تذكيرهم بأنكم تبصرون من الآيات والحجج ما يُوجب عليكم أن تؤمنوا حتى بما لا تبصرون من علم الغيب، ومنه البعث والحساب، والجزاء، والجنة والنار. فإن اقتران ما ﴿ تُبۡصِرُونَ ﴾ مع ﴿ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾ يستوجب منكم الإيمان بالغيب بناء على الإيمان بالمشاهد من خلق الله تعالى وتدبيره. وهذا يستلزم منكم الإيمان بالوحي، وبالقرآن العظيم، وبأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول إليكم، بلا شك ولا ريب، وأنه لا يقول إلا الحق الذي أوحاه الله تعالى إليه. وهذا كله من إعجاز بلاغة القرآن الكريم في قوة وعظمة دلالات سياقه، وتراكيب ألفاظه العظيمة، بما يثبت أنه كلام رب العالمين بلا شك ولا ريب في ذلك.

فأفاد هذا القسم نفي ما قالوه من الافتراء، كما أفاد تكذيبهم لما افتروه من الطعون المخترعة الكاذبة، ومن ذلك افتراءهم بأن القرآن شعر وسحر، وكهانة. أي: فلا تنكروا ولا تجحدوا ولا تكذبوا ما بيناه لكم من جليل النعم، وما تضمنته من الحجج. وأن هذا القرآن العظيم كلام الله بلا ريب ولا شك فيه. فاستوفت دلالتها التأكيد للحق والنفي للافتراء والباطل، وتعظيم المقسوم به. وهذا من عظيم البيان في تناسق دلالاته التي تُظهر عظيم بلاغته، وترابط نسقه، الذي يتأكد به الإعجاز له من كل وجه. فسبحان من أظهر إعجازه في كلامه؛ كما أظهره في مخلوقاته وآياته الكونية.

وبعد الإثبات الواضح المبين ينفي تبارك وتعالى افتراءهم بأن القرآن الكريم هو مقولة شاعر. فيدحض الله تعالى قولهم بما سبق من البيان العظيم، ثم يعطف عليه التأكيد بالتخصيص لذلك الذي قالوه: بأنه شعر. فقال تعالى ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴾ فإن هذا القرآن العظيم ليس بقول شاعر. فأفاد قوله تعالى ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖ ﴾ نفي أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم شاعر، وبالتالي نفى أن يكون القرآن العظيم شعراً. وبذلك بهتهم بما يعرفون من الحقيقة التي يَدَّعُون خلافها. فحملت دلالته الأمرين معاً، وبسياق واحد. فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يُعْرَف بين قومه أنه ينظم شعراً قط، ولا ينقل الأشعار. كما أن كل من يعرف الشعر يدرك أن نظم القرآن ليس في الشعر من شيء البتة. فإن نعتهم له بالشعر هو افتراء محض.

ومُؤكَّد ذلك بقوله تعالى ﴿ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴾ فما إيمانكم إلا قليل. بما يفيد كثرة ما يقابله من الكذب والافتراء. فأثبت عليهم الكذب، وكثرة انتحاله، والتخلق بالافتراء، وأنه الأصل لهم، ونفى الإيمان والتصديق بالحقائق، واستثنى منه القليل، واليسير، وهو عندما يشتهون شيئاً يوافق هواهم فيصدقون به. وأيضاً يشمل ما أدركوا حقيقته في قلوبهم بأنه كلام الله تعالى، ولكنهم يجحدون.

ثم يتدرج البيان الكريم إلى نفي افترائهم الآخر: بأن القرآن قول كاهن. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ وأن القرآن العظيم ليس بقول كاهن كما تفترون على الرسول صلى الله عليه وسلم. والكاهن هو: من يَدَّعِي علم الغيب. بما يفيد التزكية للرسول صلى الله عليه وسلم، فإنك أيها الرسول لم يكن منك شيء من ذلك، بل إنك تخبرهم بما أوحاه الله تعالى إليك. ثم يُثبت الله تبارك وتعالى صفة أخرى لهم، تجعلهم يمتنعون بها عن الإيمان، وهي أنهم ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ فما اتعاظكم وتذكركم للحق إلا قليل. بما يفيد كثرة ما يقابله من التجاهل والتمنع من الاتعاظ. فأثبت عليهم سبحانه وتعالى نفي الاتعاظ، وكثرة تجنبه، بسبب تخلقهم بالكبر والحسد، وهو الأصل لهم، ونفى عنهم الاتعاظ الذي يتحقق به التصديق والإيمان بالحق، واستثنى منه القليل، واليسير، وهو عندما يشتهون شيئاً من الباطل يقررونه، وأيضاً ما يخفونه مما وقر في قلوبهم. كما قال الله تعالى في سورة الأنعام ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ وكما قال تعالى في سورة النمل ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ مما يفيد وجوب الاستسلام لله تعالى وللحجج والبراهين التي أنزلها الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، والتي منها القرآن العظيم، والتجرد من الحسد والكبرياء، فإنه يمنع صاحبه من الإذعان للحق، فينحرم من الخير.

ثم يعود بهم البيان والتوجيه والوعظ إلى إثبات وتأكيد أن القرآن العظيم هو من رب العالمين سبحانه وتعالى. فيقول عَزَّ وجل ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فإن هذا القرآن الذي انتفى عنه الشعر والكهانة التي تَدَّعُونه زوراً وبهتاناً، فإنه ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فإنه مُنَزَّل من رب العوالم كلها، مما تشاهدونه، وما لا تشاهدون مما غاب عنكم. فإن رب العالمين هو الذي أنزله عليكم، بعلو سنده، من الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، بما أوحاه به عليه من خلال المَلَك جبريل عليه السلام. ففي هذا البيان الكريم العظيم إظهار وتزكية وإثبات لحقيقة مصدر القرآن الكريم أنه من رب العالمين. وفي هذا الإثبات ما يفيد التهديد والوعيد لمن أنكر القرآن الكريم، ولمن نعته بسوء، فإن الله تعالى سينتقم منه، ويذله ويهينه. كما يفيد قوله تعالى ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وجوب تعظيم كتاب الله القرآن الكريم من كل وجه، لأنه من رب العالمين. ومما يفيد فكيف تنكرونه، وتكذبون به؟ وكيف يليق بهذا الإنعام أن ترموه بالشعر والسحر والكهانة؟ وأنتم تعلمون علم اليقين بأنه من ربكم رب العالمين. وهو ما وقر في قلوبهم وكذبت به ألسنتهم. كما قال الله تعالى في سورة الأنعام ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا

يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ وكما قال تعالى في سورة النمل ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤ ﴾

ثم يبين الله تعالى أمانة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك بنفي التَّقَوُّل مِنْهُ عليه الصلاة والسلام على ربه سبحانه وتعالى، بأسلوب التهديد الذي يفيد النفي من أن يكون منه ما يستوجب العقوبة له صلى الله عليه وسلم. بأنه فيما لو تَقَوَّلَ على الله عَزَّ وجل لعاقبه الله تعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴾ لو أن محمداً صلى الله عليه وسلم تكلف فقط بعض القول علينا بشيء لم نقله ﴿ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴾ لأخذناه بقدرتنا وقوتنا. ودلالة اليمين تفيد إظهار القوة وكمال القدرة ﴿ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴾ ثم بعد أخذنا له بقوتنا وقدرتنا، فإننا نذيقه العذاب بقطع العرق المتصل بالقلب، الذي إذا قُطع مات صاحبه. وهو ﴿ ٱلۡوَتِينَ ﴾ بما يفيد: لكنه رسول أمين، لم يكن منه شيء من ذلك، ولا يمكن أن يكون منه حتى ولو بعضه. لأن دلالة ﴿ بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴾ تفيد حتى اليسير من القول. ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴾ وبما يفيد أنه حتى هذا اليسير لم يكن منه عليه الصلاة والسلام. وهذه تزكية عظيمة للرسول صلى الله عليه وسلم، بأنه لم يَتَقَوَّل ولا بكلمة واحدة في كتاب الله تعالى خارجة عما أوحى الله تعالى به إليه. فإنه الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق البيان أن حرف ﴿ وَلَوۡ ﴾ من قوله تعالى ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴾ يفيد انتفاء أنه حصل التَّقَوُّل. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: فإن ﴿ وَلَوۡ ﴾ تقتضي انتفاء مضمون شرطها، لانتفاء مضمون جوابها[١] بما يفيد إبطال أي زعم لهم من أن الرسول صلى الله عليه وسلم يَتَقَوَّل على الله تعالى، ولو بكلمة واحدة. وهذا يبين خطورة من يحرف القرآن، فإن مآله إلى عظيم النكاية.

ثم يثبت الله تعالى كمال قدرته لما يريد، وانتفاء قدرة أي أحد عن منع ما يريد عَزَّ وجل، فقال تعالى ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴾ فليس منكم من أحد يستطيع أن يمنع عنا ما نريده، ولكنه عليه الصلاة والسلام رسول أمين. وهذا مزيد تزكية له عليه الصلاة والسلام، وترهيب لكل أحد يتهم الرسول صلى الله عليه وسلم، أو يَتَقَوَّل على الله تعالى بالكذب. فإذا كان نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم مأخوذ باليمين فيما لو حصل منه القول بما لم يقله الله تعالى، فكيف بمن هم دونه، والناس كلهم دونه عليه الصلاة والسلام.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٢٤/١٢)

ففي ذلك قوة التحذير، مع قوة الإثبات بأن القرآن كلام الله تعالى، وأن ما يقوله صلى الله عليه وسلم هو كما أُوحِي إليه من ربه عَزَّ وجل. وبالتالي فإن أفعاله عليه الصلاة والسلام لا تخالف منطوقه صلى الله عليه وسلم، فهو صاحب الخلق العظيم، حيث تَمَثَّل بالقرآن صلى الله عليه وسلم، كما قال الله تعالى في سورة القلم ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ إنك يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لعلى أعظم المكارم من المحاسن الْخُلُقية. ليجمع بذلك المدحُ والثناء حتى دين الله تعالى، لأنه دين الأخلاق الذي تمثل به الرسول صلى الله عليه وسلم. فهذه تزكية عظيمة. وكما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (فإن خُلُق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن) [١]

ثم بعد ذلك يخبر الله سبحانه وتعالى عن قوة وفاعلية القرآن في التذكير. بأنه يحصل بالقرآن العظيم ما يذكرهم بما يجب عليهم لربهم سبحانه وتعالى، فيقول جَلَّ شأنه ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فإن القرآن مُذَكِّر للناس بما يغفلون عنه، مما يجب عليهم من ربهم سبحانه وتعالى. فكلما قرأ المتقون القرآن ذكرهم بما يجب عليهم. والقرآن الكريم يُذَكِّر عموم الناس بمصالح الآخرة، ومصالح الدنيا، وما فيه من ذكر الجنة والنار، والحساب والعذاب، وما تنتظم به حياة الناس من الأحكام، والتشريع، والمواعظ والأخلاق، والعبر، وقصص الأقوام السابقين التي فيها مواعظ لغيرهم. ومن دقائق السياق هو ربط التقوى بالتذكر، فإن المتقين هم الذين يتذكرون، لأنهم يخافون عقاب الله تعالى، ويسارعون لطاعة ربهم عَزَّ وجل، بأداء فرائضه، واجتناب المعاصي. فإن القرآن مُذَكِّر لمن اتصف بالتقوى، وأرادها سلوكاً ومنهجاً له. وفي هذا حث للناس جميعاً بأن يتقوى الله حتى ينتفعوا بالقرآن. لأن المتقين هم المنتفعون بالقرآن الكريم في كل حياتهم. فمن أراد الانتفاع فعليه بالقرآن الكريم، ولزومه بالقراءة والاتعاظ والتطبيق. واسأل الله تعالى أن يجعلنا وإخواننا المسلمين من المتقين، ومن أهل القرآن.

وبالرغم من كل هذا البيان والوعظ فإن هناك من هو مستمر في التكذيب، فيخبر الله تعالى بأنه بهم لخبير، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ وإن ربكم عالم بأن منكم مَن هو مستمر في التكذيب بالقرآن، فلم يتعظ بمواعظه، ولكن سيكون حسرة عليهم يوم القيامة، فقال تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: وإن القرآن العظيم لحسرة على الكافرين، المكذبين يوم القيامة، فيتمنون لو أنهم أخذوا بما ذكرهم به من الوعظ والترغيب والترهيب. وهذه موعظة عظيمة للمكذبين الكافرين، بأن لا تفوتهم فرصة سعة الحياة الدنيا. فاغتنموا حياتكم بالطاعة والامتثال. فإنه وعظ من العليم الرحمن الرحيم، بما يبين ويدل على رحمة الله

(١) مسلم، صحيح مسلم، برقم (٧٤٦)

تعالى للخلق بهذا الوعظ، وهذا الإنذار والبيان. وأن مراد الله تعالى من جميع عباده أن يطيعوه، وأن يدخلوا الجنة أجمعين. ولكن أكثرهم الكاذبون الكافرون.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى بما سبق من وعظه للعباد بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ إن هذا الذي ذكرناه لكم ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ لهو حق ثابت، لا ريب ولا أدنى شك فيه. وقد أفادت دلالة ﴿ ٱلْيَقِينِ ﴾ أنه الثابت والمجزوم به، بما يفيد التأكيد المجزوم به حقاً يقيناً. ومن بلاغة تأكيد هذا البيان أنه اشتمل على عدد من المؤكدات، أحدهما حرف التأكيد **(إن)** ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ والثاني لام الابتداء، المتصدرة ﴿ لَحَقُّ ﴾ والثالث: دلالة **(حق)** من قوله تعالى ﴿ لَحَقُّ ﴾ فهذه مؤكدات، تؤكد حقيقية ما أخبر الله تعالى عنه فيما سبق من هذه السورة المباركة. فالقرآن حق اليقين، وأن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً حقاً بلا شك ولا ريب، ولا ينطق إلا بما أوحاه الله تعالى إليه. وأن الحاقة حق اليقين، والحساب حق اليقين، والجنة والنار حق اليقين.

وبعد كمال البيان من الله تعالى، فإنه يختم عَزَّ وجل سورة الحاقة بما ختم به سورة الواقعة بالأمر بتنزيهه عَزَّ وجل عما لا يليق بعظمته وجلاله، وعظيم إنعامه، وعظمة آياته في خلقه وتدبيره. فيقول جَلَّ شأنه ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فنزه ربك أيها الإنسان، بتعظيمه جَلَّ جلاله، وتنزيهه عن كل ما لا يليق بعظمته التي أظهرها لكم بعظيم البيان ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي: سبح صاحب العظمة والجلال التي ليست لأحد من خلقه. فسبح ربك واحمده، ونزهه عما لا يليق به. ومن ذلك قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وسبحان الله وبحمده، وسبحان الله العظيم.

وقد ورد الخطاب والأمر الكريم من غير تخصيص لأحد بعينه ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ليشمل جميع المخَاطَبين، فيأمرهم بكثرة التسبيح. واصل التسبيح: التنزيه والتقديس، والتبعيد بالتطهير من النقائص ومما لا يجوز في حق عظمته وجلال سلطانه عَزَّ وجل، فهو تقديس وتنزيه الله تعالى عما لا يليق به، من إضافة ما ليس له في اسمائه أو صفاته، أو من ذاته، أو أفعاله، أو إرادته. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: التسبيح في كلام العرب، التنزيه والتبعيد من السوء على وجه التعظيم[1] فالتسبيح هو تنزيه من النقائص والعيوب، فهو تنزيه الله جَلَّ جلاله من كل سوء، وهو تعظيم لربنا عَزَّ وجل. فإنه سبحانه وتعالى مُقَدَّسٌ ومُنَزَّهٌ ومُطَهَّرٌ في ذاته واسمائه وصفاته وأفعاله، فلا يُقاس على أحد من خلقه عَزَّ وجل. فتقديسه وتنزيهه يكون بوصفه الذي هو

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٦٣/١)

لألوهيته وربوبيته، وكمال ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه. فَيُنَزَّه من الشريك والولد والمثيل والشبيه وغير ذلك مما لا يليق به عَزَّ في علاه.

ومنبع انطلاق التسبيح من القلب، أي: أن مبعثه من القلب، بما يعتقده العبد من كمال التقديس لربه تبارك وتعالى، ويُصدقه القول والفعل والتطبيق بالعمل والامتثال، وذلك بالبعد عن الشرك والرياء، ونحوه، إضافة إلى ما يلهج به اللسان من المحامد. وكما أن منطلق الذكر هو القلب، فإنه يجتمع معه الفعل في العبادات كالصلاة، لأنها ذكر، لِمَا فيها من التسبيح والتكبير، وتجريد أدائها من الشرك والرياء، وإخلاصها لله تعالى.

ومن بديع البيان أن الأمر بالتسبيح ورد بعد أن أقام الحجة الناصعة التي تبين للإنسان عظيم قدرته جَلَّ جلاله، إذ أهلك المكذبين بيوم البعث والنشور والحساب والجزاء. وفي هذا التسبيح إبطال وتكذيب لما نسبه المشركون لربهم من الأنداد وغيرها، مما لا يليق بجلاله وعظمته عَزَّ في علاه.

وقد ورد الأمر بالتسبيح على إطلاقه دون تقييده بوقت، ولا صفة وهيئة محددة، حيث قال تعالى ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ لتستوعب جميع الدلالات. إذ تأتي بمعنى: صَلِّ لله سبحانه وتعالى. ونزهه بلسانك، واعتقادك، وبأفعالك. وقول سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا إله إلا الله. فجميعها متوافقة، ولا تعارض بينها، بما يبين أهمية وعظمة مداومة التسبيح. فلا يزال اللسان رطباً بذكره عَزَّ وجل. وقد وردت الأحاديث النبوية بتفاصيل فضل التسبيح. فإنه قوة وعزة للمؤمن، وأن الله تعالى يدفع به الشرور، ويجلب به الخير.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الحاقة. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.